او في على خضر الغصون واصبحت كالدرّ في قُضُب الغصون تُسلكُ
مجترّين الاشجارُ منهُ ملاءةً عمّا قليلٍ بالرياح تحنّكُ
كانت كعود الهند غرّيا فاكتست في لون ابيض وهو اسودُ حالكُ
والجوّ من أرَجِ الهواء كأنهُ ثوبٌ يُعنبرُ تارةً ويُمسكُ
فاليوم يوذن لاخذ انهُ سيُطالُ فيهِ ذمُّ الزمان ويُبذلكُ

قلنا وافضلُ من سفك دم الدنان انقطاع الانسان الى امور بيته والصلاة الى ربه في مثل ذلك الوقت

هذا ونسأل الله ان يكون هذا الثلج رائد سلام وخصب بمنه تعالى

ضلال الوهم في الحيوانات والحشرات

لبنا اسكندر شوران البسوعي

ان في اعمال الحيوانات والحشرات صغيرها وكبيرها ما يحملُ على العجب ويقف امامهُ الانسان حائرًا متذهلًا فان بعضها كالنحل والنمل تُبدي براعة غريبة ومعرفة عجيبة في مزاولة الاشغال واتقانها فهي تجتمع جماعات جماعات يسعى كل فرد منها لصالح الجماعة ويعمل لخيرها ولو نظرنا الى ذوات الأثدية لرأينا فيها من الانعطاف والحبّ لصغارها ما يذهل العاقل ويستوقف البصير وكم من امور عجيبة في الطير التي تبني اعشاشها وتحضن بيضها وتغذي فراخها واذا شعرت اسرابها بقدوم البرد تغادر مساكنها الى حيث تجد الشتاء اخفّ وطأةً وألطف بردًا ومثلها الحشرات التي تعتني بالدودة التي تخرج من بزرتها وتعدّ لها قوتها . فاذا رأى الانسان كلّ ذلك تبادر الى ذهنهِ قولهُ : اليس عند هذه المخلوقات شعاعٌ من نور العقل الحقيقي ؟

ولكن لا يسوغ للعاقل ان ينخدع بالمشاهدات فيحكم عنها قبل ان يدرسها درساً مسهباً ويرى ما هنالك من الحقيقة والصواب . وقد تقدّم لنا بحث في غير هذا المكان عن بعض مميّزات الغريزة اثبتنا فيه ان اعمال الحيوانات والحشرات انما ترمي الى حفظ البقاء ودوام النوع فتقدّر اعمالها على قدر حاجتها ولا تستعمل من الوسائط

كما يلوح الأما انطبق على غاية مطاوبة فاو تتبعنا اعمالها عن كثب باخلاص وصدق نية لتبيّن لنا حينئذٍ مبلغها من الفهم والادراك — ان كان ثمّ فهم او ادراك — وعليه فاننا سننظر في اعمال بعض هذه الكائنات ونتشرب لذلك امثالاً من الحشرات المألوفة وغير المألوفة ونتتبع في مقالنا هذا بعض الاختبارات العديدة التي اجراها العلّامة «فابر» في ابحاثه عن طبائع الحيوانات وعوائدها

يقول الماديون : ان كل جماعة تدلُّ على اتحاد إرادات الأفراد في سبيل النفع العامّ وان النحل والنمل لتعيش كذلك فهي اذن جماعات حقيقية تسعى كل افرادها لخير مشترك فهناك اذن قوة مدركة تدير امورها وترشدها الى صلاحها . فللّه درُّهم لهذا القياسَ المنطقي الذي لو عرضناه على محكّ العقل لتقط من تلقاء نفسه ولم يثبت فقد وهمَ الماديون في قياسهم وخبطوا فيه خبط عشواء متشبثين بأوهى من خيط العنكبوت

نعم اننا لا ننكر ان النحل تعيش جماعات وانها تنتج الشمع وتجمع العسل وتربي نسلها وتقتسم اشغالها وان لها يعسوباً نسميه ملكة وان عندها العاملات وغير العاملات وخلاف ذلك من الامور العجيبة ولكن أتصنع ذلك بقوة التمييز او تجري عليه بمقتضى إرادتها ومعرفتها لخيرها وهل هنالك عقل يسوس تلك المملكة الصغيرة ويدبّر شؤونها ؟ اليس يعسوب النحل هو القائم بتدبير الرعية ؟ كلّا ثم كلّا فان ملكة النحل ما وجدت الّا لتضع البيض فما هيَ الّا آلة عمياء ولو اضطرّت الى عمل غير هذا العمل لظهرت من الحمق والجهل بمكان حتى انها لا تقوى على تناول الطعام بنفسها فيقوم بتغذيتها بعض العاملات

ولعلَّ متفلسفاً يقول : ان هذا من ميزات الملوك فانهم يكثرون من الخدم والحشم في بلاطهم . أجل لكنَّ الملك لو زُجَّ في حبس ونحّيتَ حاشيته عنهُ فتضوّرَ ولديه من الطعام ما يردُّ به هجمات الجوع ومضض الموت لما تأخر عن تناول قوته بيديه حضر الخدم او لم يحضروا امّا ملكة النحل فانها تموت جوعاً والقوت متوفر لديها لان من غريزتها ان لا تقتات بنفسها بل ان تُطعم وليس عندها من العقل ما يقوم مقام الغريزة فتتناول الطعام وتحيا فهيَ هكذا خُلقت وهكذا تظلّ ابداً ومن ثمّ نرى ان المعتنين بالنحل اذا ارادوا ان يحسّنوا انواع نحلهم وطلبوا اجناساً أخرى من غير بلادهم وضعوا

ملكات النحل في اقفاص صغيرة مشبكة ووضعوا فيها معها شيئاً من العسل يكون لها زاداً لطريقها ولكنهم لا يفتأون ابداً عن ان يجعلوا في صحبتها بعض النحلات العاملات لتقوم بتغذيتها والا ماتت الملكات جوعا والقوت متراكم لديها ليس لها الا ان تتكلف تناوله وهي لا تفعل . فكيف يفسر الماديون ذلك او كيف يعللون هذا الخلل في ملكة النحل

هذا ثم ان اثوالا عديدة من النحل تنفصل عن القفير لتبني لها قفيراً جديداً لكن كثيراً منها تتلف لقلتها وضعفها ولو ان عندها مسحة من الفهم والادراك لاستدركت الامر واجتمعت مع اثوال اخرى او بقيت في القفير الاول فنجت من الهلاك المؤكد

او ما يقول الماديون فيما نراه من تقاعد النحل عن الدفاع عن نفوسها ومقاومة دودة فراشة تدعى سوسة النحل (teigne des Abeilles) فانها تدس بيضها في مخاريب الخلية حتى اذا نقفت افسدت القفير واهلكت القسم الاوفر من سكانه . فلو كان عند النحل شيء من ادراك الاتحاد كما يزعم الزاعمون لاجتمعت على تلك الدويدات واهلكتها عند خروجها من بيضتها

ومن العجب ان تتغافل النحل عن هؤلاء الاعداء وتعرض نفسها للموت في هجومها على عدو ربما كان عدواً وهمياً فتلسعه بخمتها وتموت وهي لا تتعرض لتلك الدودة الصغيرة قبل ان تنسج خيوطها على أقراص الشمع وتعيث في القفير فساداً . فلو كان النحل ذرة من العقل كما يقولون أما كانت تتحد وتتعاون لتطرد من امام مدخل القفير الحرذون الذي يتردد منها المئات في دخولها الى القفير وخروجها منه . لا ليس عند النحل عقل وليس عندها ألفة حقيقية وان هنالك الا غريزة تختلف في بعض احوالها عن غريزة بقية الحيوانات ولكنها لا تزيد على الوهم . كذلك قل عن بقية الحشرات والحيوانات فان في غرائزها زيغاً وضلالاً كما تحققنا ذلك في جماعة النحل

فلنعتبرنَّ الآن طائفة النمل وهي تعيش ايضا مجتمعة فيزعم بعضهم ان لها عقلا تنقاد له وتعمل به وما هنالك الا غريزة عجيبة تساعدها على انشاء قريتها وسبي غيرها من النمل واستخدامها في امورها والاعتناء في جمع اقواتها وحفظها ولكنها لا تزيد على النحل فهماً وادراكاً . انظر هذا النمل الذي شمّ رائحة السكر وراء الحدود في

الارض فاذا وجد خيطاً او قشة فوقهُ تبلغهُ الى السكر جرى عليها . اما اذا تزعنا تلك القشة او ذلك الخيط عجزت النملة من تلقاء نفسها عن وجود حيلة لارجاع القشة او ما يقوم مقامها لتسير فوق ذلك الجسر الصناعي فتبلغ الى السكر الذي تتم واتحته عن كثب . أما كان يمكنها وهي التي تجمع القش في بيوتها ان تملأ ذلك الاخدود الصغير ثم تمر عليه آمنة . أما تقوى وهي التي تنقب الارض وتسل الأنفاق وتشكل بيتها على صور متعددة ان تحفر نفقا تمر بهِ تحت الارض فتصل الى ذلك السكر ؟ لا اعمري ان النمل لا تستطيع تحويك ثلاث ذرات من الرمل لعملٍ يدل على العقل والادراك وغريزتها اليوم كما كانت يوم خلقها الله دون ادنى ترقٍ

بينما كنا نكتب هذا الفصل في السنة ١٩١٤ اذ عثرنا على مقالة نشرتها مجلة كوسموس في تاريخ ١٥ ايار سنة ١٩١٣ ذكرت فيها نتيجة ابحاث المسيو كورنتز احد مشاهير الباحثين عن طبائع النمل يؤخذ منها انَّ ما يتناقلهُ الناس حتى الكثير من الكتبة عن معاونة النمل بعضها لبعض حيث تجتمع اثنتان او اكثر منها للقيام بعملٍ ما فهذه تجرّ الثقل وتلك تدفعهُ ريثما يتم العمل بالتعاضد كما يفعل العَمَلة في الناس ذلك كلُّهُ لا اصل لهُ ولا سند وانما هو مجرَّد وَهم الناظر الذي ينسب الى النمل ما يراهُ في البشر . وقد عدَّد المسيو كورنتز امتحاناتهِ ليتحقَّق هذا القول فكانت نتيجة ابحاثهِ معاكسة لهذه الروايات الوهميَّة اذ وجد النمل ليس فقط لا تتكاتف افرادهُ وتتساعد بل على عكس ذلك يخالف بعضها بعضاً في الغالب فليس بينها ألفة او عمل اجتماعي كما زعموا واذا وُجد شيء من ذلك فمن باب الصدفة والعمل الانفرادي الشخصي ليس الَّا

فكيف يزعمون بعد هذا ان اجتماعات النحل والنمل تدلُّ على الفهم والادراك وتثبت الاتحاد في الاعمال والاجتهاد في اتقانها والسعي وراء غاية معلومة ؟

ثم ان لكل جماعة سلطةً تأتمر بامرها وان لكل فردٍ في الجماعة حقوقاً وواجبات يمكنه — ان كان حرًّا — ان يعمل بها او يخالفها . فهل ترى شيئاً من ذلك عند النحل والنمل وهما اكثر الحشرات اجتماعاً لا لعمري فان اليعسوب الذي نسميه ملكةً للنحل ليس له اقلّ سلطة على قفيره ولكنه يستعمل غريزته ويشتغل مع الجماعة كما خطَّت له يمين العلي منذ الازل فهو يضع البيض كانه آلة لتوفير النسل ليس الَّا

ثم ان الغالب على فكر الناس انّ تربية الصغار تختصّ بالوالدين لاننا نشاهد ذلك في الناس وفي كثير من الحيوانات ولكنه على خلاف الامر في غيرها من الحيوانات الدقيقة كما ترى في النحل والنمل فان هذه المهمّة الخطيرة تختصّ عند جماعة النحل بفئةٍ لوحدها وهذا من تخصيص الطبيعة العمياء التي لا تفقه عملاً ولكنّ يدًا الهيّة تدبّرها من ورائها وتهديها سبيلها ولا تكلفها مشقّة التفكّر . فكما ان الطير تتبع غريزتها في حضانة بيضها وتربية صغارها وبناء اعشاشها كذلك النحل والنمل تتبع غريزتها بتغذية دودها او ذرّها وهيهات ان تجري في عملها على مقتضى شريعةٍ اجتماعيّةٍ يمكنها اتباعها او التنكّب عنها . نعم ان اعمال النحل والنمل في دائرة غريزتها باهرةٌ تبعث على الانذهال والتعجب . ولكن خارجاً عنها تجد البلاهة والضلال

ولو رافقنا المسيو فابر في بعض امتحاناته تأكدنا زيغان الغريزة وجهلها المطبق على رغم ترقيها في بعض الحيوانات

وقد اجرى المسيو فابر عدّة اختبارات في غيرها من الحشرات نجد في ذكرها ما يوقفنا على بلاهة الحيوان حتّى في اكمل مظاهر غريزته

هاءنذا بحشرتين قد برعتا في نسج الفيالج اعني بهما دودة القزّ ودودة فراشة زهيّة الالوان يدعوها بطاؤوس الليل . فلنعتبر اولاً هذه الفراشة التي تفوق على سواها من الفراش بالكبر اذ تبلغ سعة جناحيها الى ١٥ سنتيمترًا . وهي معروفة في اقطارنا تراها في الربيع تطير بين شجر اللوز والدردار والتفاح والخوخ الخ لاغذاء دودتها بورق هذه الاشجار . واذا قدم الصيف نسجت فيلجتها على مقربة منها فتخرج الدودة من الفيلجة في وقت الربيع . والدودة هذه غايةٌ في الحسن فضلاً عن كبرها ترى على جسمها ذي الخضرة الفاتحة دوائرَ منتظمة ثلاثة تكللها اهداب سوداء في وسطها نقط زرقاء كالازورد كأنها اللآلئ المرصّعة

فدودة هذه الفراشة تحيك لها فيلجة كبيرة من الحرير قاتمة اللون اسفلها اكبر من رأسها تختلف عن فيلجة دود الحرير في هيئتها . فانّ فيلجة القزّ مسدودة الطرفين لا تستطيع دودتها الخروج من حبسها ما لم تثقبها . على خلاف دودة طاووس الليل فانها اذا شرفت تدع لها منفذًا لتخرج من مكمنها على صورة فراشة كأنها عالمة باحتياجها الى ذلك المعبر عند خروجها وانها ليس لها علمٌ دودة القزّ في ثقب الفيلجة

والثقب المذكور تجعلهُ في الطرف الأدقّ . ولئلّا يدهمها عدوٌ فينفذ اليها من ذلك الثقب تحتاط لنفسها بنوع عجيب فانّها كلّما بلغت الى الثقب من جميع جوانبهِ تنفث من لعابها خيطاً الى خارج الفيلجة دون ان تلصقهُ وتكرّر ذلك الى آخر عملها فترى الخيوط الخارجة شبيهة في جمودها ورخاوتها باسلاك الفخّ الذي يُعَدّ للفأر حتّى ينفذ الفار الى الباطن دون ان يستطيع الخروج واتّما هذه الخيوط هي بالعكس جامدة في الخارج لا تستطيع حشرة أخرى ان تنفذ فيها لكنها رخوة من داخل بحيث يمكن الدودة ان تفتحها اذا ضغطت عليها . وهذا لعمري من ابدع اعمال غريزة الحيوان

وان قال القائل انّ ثمّت اثرًا من الفهم والعقل أنكرنا ذلك واثبتنا قولنا بالامتحان لنبيّن انّ تلك الفراشة لا تدري ما تصنع ولا تعقل السبب الموجب لنثر ثقبها . فها نحن ننقض الخيوط التي تحجب ذلك الثقب ونوسع الثقب قليلًا . أفلا ترى انّ الدودة لو كان فيها ذرّة من الفهم لأسرعت الى تلافي ذلك المصاب واستدراك الخلل لسدّ الثلمة وتصلح ما فسد منها بتخصيص ما بقي عندها من النسيج وتوصد الباب امام كلّ معادٍ . الّا انّها لا تكترث للخراب وتواصل عملها ذهاباً واياباً دون ان تحيد البتّة عن خطّتها كأنّ فيلجتها صحيحة . فمن لا يرى بهذا العمل جهلًا وحمقاً ولديها من الحرير ما يكفي لاصلاح الفساد

هيّا بنا الآن نوجّه النظر الى دودة الحرير . فهذه تنسج فيلجتها مُحْكَمة دون ثقب فيها تُعدّهُ لخروجها . فكيف تخرج اذن من قبرها ؟ . قد خوّلتها الطبيعة سلاحاً يمكنها من تلك الغاية واتّما ذلك ايضاً وهمٌ خاصّ وغريزة لا دخل فيها للعقل . والسلاح المذكور هو عينُها فبقرنيّة هذه العين تحكّ نسيج فيلجتها بعد ان تبلّهُ بأمابها ولا تنقطع عن الحكّ اياماً على مقتضى غريزتها الى ان تفتح لها بعد شقّ النفس منفذاً تخرج منهُ الى فضاء الجوّ . ولكن دَعْنا نوفّر عليها ذلك التعب الشاقّ فنفتح لها منفذاً صناعيًّا او ثقباً تحت المكان الذي تحكّهُ الدودة لتخرج منهُ . فلا ريب انك تقول انّ الدودة تكفّ عن العمل وتخرج من المنفذ الذي فُتح لها . كلّا ثمّ كلّا بل تبقى في حكّها المألوف وهي تكدّ وتكدح ولا تلتفت الى خلافهِ الى ان تخرج من الباب الذي هي تفتحهُ . فانظر رعاك الله ما هو مبلغ ادراكها !

دونك امتحاناً آخر يوقفك على جهل دودة القزّ بكل ما يخالف غريزتها الفطريّة .

لُفَّ فيلجتها بورقة رقيقة دون ان تمسّ الورقة محكّ الفيلجة فيبقى بينهما فضاء نحو ٣ سنتيمترات حتى اذا حان وقت تعبها للفيلجة وخروجها منها تجد امامها هذا الحاجز الجديد وهو ارقّ سمكاً من فيلجتها واسهل فتحاً. فيا تُرى ألا تحاول فتحهُ لتخرج وذلك عليها امرٌ قريب المنال لاسيَّما اذا بللتَ الورق الملفوف . ولكن هيهات ان تفطن لذلك وهي تموت دون مباشرته لأنَّ غريزتها لا تتجاوز حكَّها للفيلجة ليس الَّا هذا ما لم يُلصَق الورق بالفيلجة فتخرقه صدفةً دون تعمُّد

وان شاء اهل لبنان يمكنهم ان يُجروا الامتحان الآتي حيثما يوجد في الجبل احراج من الصنوبر فان من يمعن النظر في اغصان الصنوبر ربَّما رأى في اطرافها كُتلةً بيضاء تجتمع حول إبرها وهي على شبه كيس من حرير ذي طبقات عديدة يركب بعضها البعض . فان فتحت تلك الاكياس وجدت فيها عدداً عديداً من الدود الأزغب المعروف بدود الصنوبر المُتتالي(Chenilles processionnaires) لانها اذا خرجت من عشها لا تخرج الا متتابعة الواحدة تلو الاخرى وهي كبقية الدود تنقلب في آخر امرها الى فراشة واما عشها فهو منزل اشتراكي بدأت ببنائه منذ خروجها من البزرة ثمَّ توسعهُ وتفسح جوانبهُ كلَّما كبرت وعظمت فهي فيه في امان لاتخاف الهواء العاصف ولا المطر الغزير بل تتقي به ثلج الشتاء وبردهُ القارس ولا تخرج من مقرّها الَّا في الايام الدافئة حيث يكون الهواء ساكناً والشمس ساطعةً واذا خرجت مجتمعةً يترأس الموكبَ دودةٌ تتبعها الدودات الاخرى . وقد علَّمتها الغريزة امراً نادراً في بقيَّة الحشرات وهو ان تخطَّ عند ذهابها من العشّ خطاً تأمن معهُ ضلال طريقها عند رجوعها الى مقرّها فكل دودة تترك على اثرها خيطاً رفيعاً من الحرير لا يلبث ان يجتمع اليه خيوط رفيقاتها السائرة وراءها فاذا همَّت بالرجوع سلكت الطريق التي رسمتها فتأمن الضلال . فاملك تعزو ذلك الى عقل او فهم يرشد الدودة الى هذا العمل احتياطاً للمستقبل . ولكن لا نتسرع بالحكم بل نجرّب عليها مع العلامة غير امتحاناً صغيراً لنكشف جلية امرها ونستطلع مكنون سرّها :

أحضرَ المذكور الى بيته عدداً من هذه الاعشاش وغرس حولها في الرمل اغصاناً من الصنوبر لتتخذ منها عند خروجها في ايام الصحو وكان يغيّرها من وقت الى آخر

حتى يظل قوتها طرياً مريناً . فخرجتْ يوماً كألوف عادتها وسارت متجهة الى قعف من فخار كان هناك قد غُرس فيهِ نبات في محضنة فطلع الموكب على القلّة واستدار حولها وكانت دائرتها تقارب المتر والنصف متر فلما اتمّت الدودة دورتها وكادت ان تصل الى المكان الذي صعدت منه الى القلّة قطع المسيو فابر تلك الخيوط المتّصلة بالارض فظلّت تدور حول القلّة سبعة ايام لم تفكر في ان تتخلّص من تلك الورطة التي وقعت فيها وكانت اذا جاء الليل تتجمّع بعضها على بعض وتتراكم كما تفعل في اعشاشها لكنها اذا طلع النهار وبزغت الشمس تعود الى ما كانت عليه من الدوران حتى هلكت . فهل في ذلك ما يدلّ على العقل والادراك او ليس هو برهاناً جليّاً على ضلال وَهْم الحيوان . ولا بدْع لأن الله لم يمنحها غير هذه الطريقة الوحيدة لنوال غايتها فاذا حادت عنها عجزت عن سواها حتّى تموت دون ان تستطيع مخالفتها

قد سبق لنا وصف حشرة عجيبة الشكل عجيبة العمل تحسن الصيد والبناء . وهي المسمّاة بيلوپاي (Pélopée) فذكرنا كيف تودع بيضها في خلايا عشها وتعطف على نسلها حتى قبل ولادته فتهيّئ له ما كلاً يجدهُ عند خروجهِ من بيضتهِ . وما الزاد الّا عناكب تصيدها الامّ فتخزنها في كلّ خليّة حيث وضعت بيضة من بيضها ولا تزال تكدس هذه العناكب فوقها حتّى تمتلئ الخليّة فتطيّنها . فمن شاهد عملها حسبها تجري بموجب الادراك والفهم . وليس الامر كذلك . فانها حقيقةً لا تدري ما هو بيضها ولا ما هو العشّ . والدليل على ذلك ما اثبتهُ المسيو فابر بالامتحان فانهُ بعد وضع الحشرة بيضتها انتهز فرصة غيابها لصيد العنكبوت فاختلس البيضة . فلمّا عادت الحشرة بصيدها لم تحسّ بفقدان بيضتها بل واصلت عملها وعبّت الطعام كأنّ البيضة في الخليّة . فاخذ المسيو فابر ينتزع من الخليّة العناكب المصطادة وهي تداوم على اصطيادها وايداعها في خليّة فارغة من بيضها دون ان تودعها بيضة اخرى . ثمّ لم يزل المسيو فابر مدّة يومين ينتزع من الخليّة كلّ صيد جديد تأتي بهِ الحشرة والحشرة لم تفطن الى ذلك بل طينت عند انتهاء زمن العمل تلك الخليّة الفارغة وسدّتها كما كانت تفعل بالخلايا الاخرى . فيا لله من هذا الجهل والحمق وهو ادلّ دليل على خلوّ الحيوان من كل مسحة فهم وادراك . والعجب العجاب انّ هذه الحشرة لا يفوتها شيء من معرفة العش ومكانه وهيئتهِ ولونهِ

فتبسط عليهِ اللاط وتصقلهُ ولا تنسى شيئاً سوى الجوهر والاصل اعني بيضتها والزاد المصمود لها وكلاهما قد سُلب ولا تميز انها تكدُّ وتتبع سدًى دون جدوى . فايّ ضلال اعظم من هذا . بل يبلغ حمقها الى ما فوق ذلك فان المسيو فابر عمد الى عشها ونزعهُ بتمامه ولم يبقَ منهُ على الحائط غير حافتهِ ودائرتهِ الدالة على مكانهِ وظهر الحائط بلونهِ وجعتهِ . فماكان من امر الحشرة الامّ الّا انها عادت الى حيث كان العش ومدّت الطين الذي اتت بهِ كأنها تسدُّ عشها المنزوع . وقد كرَّر المسيو فابر هذه الاختبارات مرارًا والعجب يأخذ منهُ كل مأخذ لما يعاين من حماقة الحشرة المذكورة

وما تحقَّقهُ في هذه الحشرة اختبره في كثير غيرها . منها الحشرة المسمَّاة سفكس (Sphex) التي تحاول مع صغرها صيد هامَّة كبيرة تُدعى افيبيجار (Ephippigère) وهي نوع من هيج الهوامّ من الفصيلة المتناسقة الاجنحة كجنس الجراد وانما بطنها اضخم وبطن انثاها يشبه سيفاً طويلًا وهو مبيضها تغرس بهِ بيضها في الارض . فكيف يا ترى تستطيع هامة السفكس ان تقوى على هذه الجرادة فتنفث فيها سمَّها وتجرّها الى وكرها بقرنيها . ذلك امر عجيب نحن في غنى عن ايضاحهِ وما لا شكَّ فيهِ انها تفوز ببغيتها وتجعل فردًا من صيدها في كل خلية تودعها بيضةً من نسلها ثمَّ تسدُّ الخليَّة . وسياق هذه الاعمال تكرّرهُ ابدًا ولا تحيد عنهُ شعرةً

هلمَّ بنا الآن نرصد حشرة السفكس وهي تجرُّ فريستها الى وكرها بقرنيها ولنفرض بقصّ نصف القرنين فنلحظ انَّ السفكس تعمد الى ما بقي منهما فتعود الى السحب . فلنقصّ الآن القرنين من اصلهما . واذا بالصيَّادة في حيرة وانذهال لا تدري كيف تجرّها الى وكرها . ولكن لديها واسطة سهلة وهي ان تسحبها بقوائمها الّا انها لا تفعل وما السبب ؟ الامر واضح انَّ حشرتنا هذه لم يُطبَع في غريزتها غير هذه الطريقة اعني جرّ فريستها بقرونها واذا فُقدت للقرون لم تهتدِ لصيدها وعمدت الى غيره حتى اذا ظفرت بهِ تعود الى سحبهِ كما مرَّ ثمَّ تودعهُ في عشها مع بيضة من بيضها

وها هي الآن تستعدُّ لسدّ عشها . فدعنا ننزع من ذلك الوكر بيضتها مع فريستها فبعد قليل ترى حشرة السفكس مقبلةً الى عشها مع اللاط اللازم لسدّه . فلا احد يشكّ انها اذا رأت العشَّ فارغاً تتوقف عن سدّه . كلّا ثمَّ كلّا بل بعد فحصها لهُ كأنها

وجدته تامّ الاهبة تباشر بسدّه دون ان تلحظ شيئاً من فراغه . فيا للجهل المُطبق ! ويا للبَلَه ! فاين ذاك الحذق في الصيد وتلك البراعة في ابتناء العشّ ؟ واين . . واين . . فما كان ذلك الّا وهماً لا يخرج عن حدود الغطرة الغريزية

ونجد وهماً كهذا في الدجاجة الداجنة . فانها اذا عمدت الى مكان تبيض فيه بيضتها الاولى لا تعود تقصد غيره بعدها لانّ وهمها يسوقها اليه فتحضن فيه كلّ بيضها . خذ الآن كرات من الجص او الصيني وابدلها من بيضها تجدها عائدة الى حضانتها اذ لا تعرف ان تميّز بينها وبين بيضها بل ولو اخذتَ بيضها جميعه وتركتَ قنّها فارغاً ثبتت فيه تحضن حيث لم يبقَ شيءٌ من البيض فتشبه ببلهها الحشرات السابق ذكرها التي تسدّ اوكارها وهي خالية من البيض والغذاء

فلنختبرنّ الآن حشرة اخرى ليست بعيدة كالحشرات السابق ذكرها ألا وهي الخليقودوم (Chalicodome) التي هي من فصيلة النحل تقوت مثلها صغارها من عسل الزهور ولقاحها الّا ان اخلاقها تخالف اخلاق النحل فانّ خلاياها ليست شمعاً كالنحل بل من الطين اللزج وهي غليظة من الخارج صقيلة بالداخل في رأسها منفذ تمجّ فيه عسلاً كثيفاً غليظاً ثمّ تلقي بيضة فوق ذلك العسل وتفعل ذلك في عدّة مخاريب وتسدّ كل مخروب بالطين عند امتلائه ثم تعمد ثانية الى الطين فتطيّن مجموع المخاريب الملاصقة في عدد خمسة او ستة بتراب ناعم تجبله بلعابها وتبسطه على الخلية بسمك سنتيمتر واحد فيجمد الطين ويصلب بحيث لا تنفذ فيه البكتين وبذلك تتقي صغارها هجمات العدوّ وآفات الامطار والثلج . وربما بنت اوكارها على الحصى في اماكن مكشوفة للحرّ والبرد فلا تفعل فيها انواء الجوّ لمتانتها وحسن صنعها . أفيوجد اعجب من هذه الغريزة او ليس ترى في فعلها اثراً من التعقّل والفهم ؟

ومما يزيدنا عجباً من امرها ما تحققهُ المسيو فابر بالاختبار كما رويناه في المشرق (١٧ : ٥٩٧) وذلك انهُ كان يجعل هذه النحلة في علبة وهي عادة لا تبتعد عن عشّها اكثر من مئة الى مئتي متر فينقلها الى مسافة ثلثة او اربعة كيلومترات في الاحراج وعلى عكس وجهة الهواء بحيث لا تجد لمرورها من اثر ثمّ يطلق سبيلها فكانت للحال تعود الى اعشاشها وكان يتحقق هويتها بنقط حمراء يصبغ بها ظهرها . وقد كرّر هذا الاختبار تلبيةً لدعوة دروين عينهِ الذي انذهل من هذا الامر المخالف لآرائه

على انّ المسيو فابر الذي كشف هذه الخواص العجيبة في هذه الهامّة اثبت ايضاً ضلال وهمها وذلك بعدّة امتحانات

وجد خليّة بنتْها حشرة الخليقودوم على حصّى متفرّقة ونقلها عند غيبتها الى مسافة لا تتجاوز المتر الواحد فلمّا رجعت الامّ اخذت تفتّش على العشّ في مكانه الاول فلم تجدهُ فدارت حوله الى ان وقفت عليه حيث نُقل لكنّها ظنّته عشًّا غير عشّها فتركتهُ وذهبت ضالّة عنهُ ! !

وفي النحل البيتي مثل ذلك فانك ان حوّلت مدخل قفيرها عند غياب بعضها وابعدتهُ عن مكانه الاصلي نحو عشرة سنتيمترات الى ١٥ س ترى النحل عند رجوعها متحيّرةً ترمي بنفسها على الباب الاوّل واذ لا تجد منفذًا تطير الى متريْن او ثلاثة امتار لتستبدي ثانيةً ثمّ تعود الى الباب القديم وتكرّر ذلك مرارًا دون ان تلقى الباب المتحوّل عن مكانه قليلًا وهي مع ذلك تبعد عن القفير الى خمسة وستّة كيلومترات لتجني عسلها دون ان تضلّ سبيلها فيا للعجب ؟

وقد استبان المسيو فابر ضلال وَهمِ حشرة الخليقودم بطريقة اخرى . وجد منها عشّين على مسافة قريبة من بعضها فبدل موضعها فجعل الواحد مكان الآخر في غيبة امّهما . فرجعت كلّ واحدة منهما الى مكان عشّها الاول واخذت تهتمّ بالخليّة كأنّها خليّتها دون ان تفرق بين عشّها وعشّ قرينتها وجعلت تهتمّ به وتصلحهُ وتسدّهُ بلاطها وتتابع شغليا لا بتقتضي حالة العشّ الجديد بل طبقاً العشّ القديم كما انها تعدّ بيضة جارتها كبيضتها والخليّة خليّتها . هذا اذا كانت سبقت فباضت اما اذا لم تبض ووجدت في هذا العشّ تلك البيضة الغريبة فانّها كانت تنزعها وتلقيها خارجاً كأنّها بعض الاقذار

فكلّ ذلك اصدق برهان على انّ الأمّين تعملان كآلة صمّاء. فمن يستطيع ان ينسب اثرًا من العقل لهذه الحشرات ؟

وان شئت دليلًا آخر على خلل غريزتها اهدم جانباً من حافة خليّتها وقت بنائه تَرَها تعود فتصلحهُ لأنّ ذلك داخل في سياق وهمها . ولكن اذا انتظرت ريثما تنتهي من بناء الخليّة وتمويتها بالعسل ثمّ ثقبتَ الخليّة من اسفلها فيسيل العسل المخزون وتصبح الخليّة فارغة فتحلة الخليقودوم لا تكترث لذلك بل تبيض فيها ثمّ

تسدّها وتطيّنها كأن الزاد متوفر لنسلها فحسبها كحمق السنكس التي سدّت مكمنها مع فراغه من البيضة والغذاء

وخذ ايضاً البرهان الآتي الدالّ على ضلال وهمها . اغرز في عسلها وهي تخزنه قشّة تبدو الى ظاهر النخروب فلا تلبث ان تنزعه . ولكن ان شككت تلك القشّة بعد نجازها من جمع عسلها وقبل سدّها للغاية فلا تعيرها بالاً وان تكن القشة تذكر دودتها بعد نموّها وتعيقها هي عند تطيين الخليّة . وما ذلك الا لكون زمن النظافة قد مضى فلا سبيل الى العود اليه

وكذلك لو ثقبتَ ثقباً على جانب الخلية بعد سدّها بالملاط فويق العسل بحيث تستطيع الدخولَ اليه والعيثَ فيه الحشرات المشرّة والهوامّ السارقة وجراثيم الغبار أترى انّ تلك الامّ التي جدّت وكدّت في ابتناء هذا العشّ لصيانة دودتها وهي الآن تملّط سطحها تتغافل عن سدّ ذلك الثقب ؟ نعم لا تكترث له لأن زمن بناء الجدران قد مضى وانما تصلح فقط ما أفسدتهُ من ملاطها السطحيّ وهي تشتغل فيه لان ذلك داخل في سلسلة اعمالها . ومن هذا القبيل ترى فضلاً للنحلة التي تصلح ما أفسد من قفيرها عند اشتيار العسل

فكل هذه الاختبارات وكثير غيرها قد اجراها العلامة فابر في الحيوانات الداجنة والطيور والحشرات وراقبها ايّاماً طويلة في اعشاشها وفي بيته حيث عني بتربيتها وإعداد كل ما يعود الى شروط عيشها ونموّها وتوليدها ونال على كتاباته فيها جوائز الاكاديمية الفرنسوية والجمعيّات العلميّة فبيّن فيها بدلائل لا يمكن نقضها الاستنتاجات الآتية التي سبق لنا الاشارة اليها :

اولاً انّ الحشرات الصيّادة عارفة بما يلائم صغارها من الصيد ولا تضلّ في تجهيزه ابداً . وكذلك دود الحشرات التي تقتات بالعشب فانّ أمهاتها تجعل بيضها قريباً من النبات الموافق لغذائها فتجدهُ عند خروجها من البيضة معدّاً لطعامها

ثانياً تعرف الحشرات الصيّادة إصلاح صيدها ليكون طعاماً جيداً لدودتها وهي تحسن إصابة فريستها في مقتلها اي في مركز أعصابها بحيث يمكنها فقء سنّها وتخدير تلك الاعصاب دون ان تميتها

ثالثاً تحكم وضع بيضتها على الفريسة بحيث تستطيع الدودة عند خروجها من البيضة ان تباشر أكل اعضاء تلك الفريسة الثانوية وتنتهي بالاعضاء الحيوية ليبقى لحم فريستها طرياً

رابعاً ان الحشرات المختلفة سواء حفرت اعشاشها في الارض ام بانتها او نسجتها فيالج تعرف تمام المعرفة فن البناء الخاص بجنسها وتبني منازلها غاية في الاتقان وتصلح ما فسد منها في وقت بنائها وكل ذلك دون تعليم سابق لكنها بعد انجاز العمل لا تستطيع البتة العود الى سياق اعمالها السابقة لتستدرك خللة مهما طرأ على العمل من الفساد

خامساً هذه الحشرات كلها العسالة كما الطيارة لا تدري مطلقاً سبب جمعها للطعام ولا ما هي البيضة ولا الغاية من بنائها للاوكار والخلايا ولا تدرك قطعياً سبب سدها لتلك الاسراب والاوكار اذ انها تسدها حتى عند فراغها من بيضها ومن طعامها

سادساً فطرت الحشرات والحيوانات عموماً بقوة وهمها على مباشرة اعمال خاصة كالطير لبناء عشه وحضانة فراخه وإعاشتها وكالنحلة البرية لتجهيز وكرها بالطين ووضعها بيضتها فيه وسد الوكر وقس عليه بقية الحيوانات والحشرات . ولا شك في ان وراء ذلك عقلاً سامياً يدبر هذه المخلوقات بعنايته ويقدر لها اعمالها ويسوقها الى غاية هو يدركها تمام الادراك وانما هي تجهلها كل الجهل .

وكثيراً ما ينخدع المرء بتلك المظاهر فينسب الى الحيوان غاية في عمله وانما الانسان يقيس اعمال ذلك الحيوان على الاعمال التي هو يصنعها لغاية مقررة بقوة عقله . اما الحيوان فخال من العقل وهو مدفوع الى العمل بحسب تأثيراته الحسية او تخيلاته فذلك الوهم او الغريزة نالها من فضل خالقه . كما ان الانسان استمد من جوده تعالى عقله . والله هو المنعم على كليهما سبحانه عز وجل